التهكم بالكفار ما لا يخفى؛ لأنَّهم زعموا وكذبوا أنَّها تشفعُ لهم عِندَ الله-تعالى-، لذلك فالاستفهام هنا ليس على بابه، إنَّما يُحملُ على تهكم وتقريع وتبكيت الكافرين.

٩- خروج الاستفهام إلى معنى التوبيخ والتقريع:

كَثُرَ ورودُ غرض التوبيخ والتقريع في كتاب الله-عَزَّ وَجَلَّ-، بقصد الحطِّ من شأنِ المخاطَب والازدراء به وتأنيبه ولومه، مع التعنيف والإيجاع والكبح في ذلك كُلِّه، فمثلاً في قوله-تعالى-: ﴿ **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ** ﴾ [الأعراف:٣٧]، نجدُ الاستفهامَ في قوله:﴿ **قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ** ﴾، للتقريع والتوبيخ، إذ الملائكة يُطالِبُون الكفار بهذه الأشياء عِنْدَ الموت على سبيل الزَّجر والتوبيخ والتقريع، لا سؤال استعلام، أي: أين الآلهة التي كنتم تدعونها من دون الله وتعبدونها، ليدفعوا عنكم ما نزل بكم؟!.

ويضارع هذا المثال ما جاء في توبيخ وتقريع قوم موسى-عليه السلام- حين عبدوا العجل من دون الله-تعالى- فقال-عَزَّ وَجَلَّ- مُخاطِباً لهم: ﴿ **أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا** ﴾ [طه:٨٩]، فالاستفهام للتوبيخ والتقريع؛ أي: أفلا يعتبرون ويتفكَّرون في هذا العجل لا يرد عليهم جواباً؟ ولا يكلِّمهم إذا كلَّموه؟ فكيف يتوهَّمون أنَّه إلهٌ وهو عاجزٌ عن المكالمة؟!!!.

١٠- خروج الاستفهام إلى معنى التهديد والوعيد:

يكثُرُ مجيءُ التهديد والوعيد إذا كان المقامُ عدم الرضا بالمأمور به، فالاستفهام حينئذٍ لا يُراد به الاستعلام فقط، بل التهديد والوعيد مع التخويف على أمرٍ غير مرغوب فيه، وهذا نجده في قوله-تعالى-:﴿ **يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا** ﴾ [الأحزاب:٦٣]، فالسياق هنا عن الذين سألوا عن الساعة استبعاداً وتكذيباً بها، وهم المنافقون والمرجفون والمشركون واليهود، فجاء الخطاب بصيغة الاستفهام الموجَّه إلى

النَّبِيِّ-ﷺ- لغرضٍ من الأغراض لا يفهم إلا بالاطلاع على السياق وقرائن الأحوال، لتكون النتيجة في النهاية بيان أنَّها إذا كانت محجوبة عنه لا يعلم وقتها وهو رسول الله-ﷺ- فكيف بغيره من الناس؟!

وفي هذا تهديدٌ عظيمٌ للمستعجلين وإسكاتٌ للممتحنين والمشركين، ولمن يثبت علم المغيبات للأنبياء والصالحين وغيرهم من الخلق، فكأنَّه قال: لا أعرف، وإنَّ أمرها موكولٌ إلى الله وَحْدَهُ، وحين قال: إنَّها قريبة استعمل-جَلَّ شأنُهُ- كلمة(لعل) التي تفيد-أحياناً- أمراً بين الإثبات والنفي؛ لكي يحقِّر النفوس إلى الاستعداد لا في أيّ وقتٍ، فَقُرْبُ موعدها أمر نسبي بالنظر إلى الأجيال المختلفة والحياة جميعاً، فناسب ذلك كله غرض التهديد والوعيد، دون غيرهما من الأغراض.

ومن أمثلة الوعيد التي خرج إليها الاستفهام ما قاله-تعالى-: ﴿ **فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ** ﴾[محمد:١٨]، فالآية الكريمة جاءت مُصَدَّرة بالاستفهام، لا لغرض طلب النظر منهم؛ إنَّما لأمرٍ آخر؛ أي: ما ينتظر كفار مكَّة إلَّا الساعة... وفي هذا وعيد للكفار شديد.

الرَّابع- النداء:

تكمنُ بلاغةُ النداء في إيجازه، وما فيه من فوائد جَمَّة؛ إذ ((**هو طلبُ إقبالِ المدعو بحرفٍ نائبٍ مناب كلمة (أدعو أو أُنادي)، المنقول من الخبر إلى الإنْشَاء**))، وبالبحث والاستقراء غُيِّنت له حروفٌ كثيرةٌ، جُمعت على ثلاثة أنواع بحسب القرب والبعد، وعلى النحو الآتي:

إذا كان المنادى **بعيداً** فله من حروف النداء: (يا، آي، وا، هيا)، وإن كان **قريباً** فله: (الهمزة) فقط، وإن كان **مندوباً**-وهو نداء المتفجع عليه أو المتوجع منه- فله: (وا).

وكان من بين حروف النداء استعمالاً في القرآن الكريم الحرف: (يا)؛ لما له من خصوصية في الاستعمال وبيان المعنى وتصويره، ومن ثم ينوب عنه أقرانه من الحروف الأُخرى، وقد ينزل البعيد منزلة القريب، أو القريب منزلة البعيد؛ لأغراض بلاغية يفهمها الفطن من القرائن والسياق.

أغراضُ النداء البلاغية:

النداء من الأساليب الدَّرِية التي تتصرف في كثير من المَعَاني والأغراض، فكثيراً ما لا يكون النداء لطلب إقبال المدعو؛ إذ قد يُنادى الحيوان الذي لا يعي... والجماد الأصم الذي لا حسَّ له ولا حركة... وكلّ ما لا يُرتجى منه إجابة، بل قد لا يتوجه النداء إلى مُخَاطَبٍ أصلاً، وذلك كما في حال مُناجاة النفس وتأنيب الضمير، وحينئذٍ تبرز وظيفة علم المَعَاني في رصد وتصيد تلك المَعَاني وتأملها، واستنباط ما يتراءى فيها له من دلالاتٍ وأغراضٍ بلاغيةٍ تُفهم من السياق وقرائن الأحوال.

وللنداءِ بهذا المفهوم مراتب عديدة:

١-نداءُ **مدحٍ:** كقوله-تعالى-: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ**﴾[المائدة:٤١]، و﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ**﴾[الأنفال:٦٥].

٢-ونداءُ **ذمٍّ:** كقوله-تعالى-:﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا**﴾[الجمعة:٦]، و﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾[التحريم:٧].

٣-ونداءُ **تنبيهٍ:** كقوله-تعالى-:﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**﴾[البقرة:٢١]، و﴿**يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ**﴾[الانشقاق:٦].

٤-ونداءُ **إضافةٍ:** كقوله-تعالى-:﴿**يَا عِبَادِيَ**﴾[الزمر:٥٣].

٥-ونداءُ **نسبةٍ:** كقوله-تعالى-:﴿**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾[البقرة:٤٠]، و﴿**يَا بَنِي آدَمَ**﴾[الأعراف:٢٦].

٦-ونداءُ **تسميةٍ:** كقوله-تعالى-:﴿**يَا إِبْرَاهِيمُ**﴾[هود:٧٦]، و﴿**يَا دَاوُودُ**﴾[ص:٢٦].

٧-ونداءُ **تضيف:** كقوله-تعالى-: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ**﴾[آل عمران:٦٤].

وبهذا يمكن القول: إنَّه ليس للنداء معنى واحد محدَّد في نظر علم المَعَاني؛ فهو منبعٌ لما لا حصر له من المَعَاني والدلالات الفنية التي تُدرك بتأمل السياق المختلفة التي يرد فيها، وهذه المَعَاني والأغراض توزَّعت على أساليب النداء المُستعملَة في الخطاب القرآني الموجه إلى نداء العاقل وغير العاقل، وقضية إنزال القريب منزلة البعيد، وعلى النحو الآتي:

١-خروج النداء إلى معنى المدح وعلوّ الشأن:

سبق أن قُلنا بأنَّ (يا) موضوعة لمنادى البعيد، إلَّا أنَّه ظهر في ذلك على غير ما يقتضيه الظاهر أو الأصل في مواضع من كتاب الله-تعالى-، لبُعْدِ المُراد ودِقِّ البيان، كان أوّلها ما قاله-سُبْحَانَهُ-:﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ**﴾[المائدة:٦٧]، إذ جاء النداء للمدح وبيان عظم الأمر المدعو له وعلو شأنه، حتى كأنَّ المنادى مُقَصِّرٌ فيه غافلٌ عنه مع شِدَّةِ حرصِهِ على الامتثال.

٢-خروج النداء إلى معنى التطمين:

من أمثلة ذلك قوله-تبارك وتعالى- على لسان نبيّهِ مُوسى-عَلَيْهِ السَّلَامُ-: ﴿**وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ**﴾[يونس:٨٤]، فهذا النداء النبوي ليس المراد به أنَّهم بعيدون عنه-عَلَيْهِ السَّلَامُ- إنَّما نُودي بما يُنادى به البعيد؛ تطميناً لقلوبهم وإزالة للخوف عنهم، وسمَّاهم قومه من حيث إيمانهم به، وإلَّا فهم من قوم فرعون، أو المراد به بنو إسرائيل أو مطلق من آمن به ولو من القبط.

وهكذا يجب أن يكون أسلوب الدعاة في مناجاتهم لقومهم وإخراجهم من ظلمات شرك الوثنية إلى نور توحيد الألوهية، لذلك نجد أنَّ هذا الأسلوب قد نجع ونجح في إمالة قلوبهم، فكانت إجابتهم سريعة: ﴿**فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**﴾ [يونس:٨٥-٨٦]، وهذا هو الأسلوب الرَّبَّاني في تعليم العباد كيفية الدَّعوة إلى دين الله-عَزَّ وَجَلَّ- وبيان حبال النجاة بدلاً مِنَ التَّخبُّطِ في الظلمات.

٣-خروج النداء إلى معنى الرفق واللين:

ممَّا جاء على هذا الغرض البلاغي قولُه-جَلَّ شأنُهُ- على لسان نبيّ الله إبراهيم-عَلَيْهِ السَّلَامُ- في مخاطبة أبيه-: ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ۝ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ**

﴿وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾[مريم:٤١-٤٥]، فقد جاء النداء في أربعة مواضع كلها تدلُّ على أنَّ النداء بـ(الياء) هنا ليس للبعيد، والسبب في هذا الخروج عن الظاهر أنَّ نبيَّ اللهِ إبراهيم-عليه السلام- أورد على أبيه الدَّلائل والنصائح، وصدَّر كُلاًّ منها بالنداء المتضمن للرفق واللين؛ استمالةً لقلبه، وامتثالاً لأمرِ رَبِّه، ووصف الأصنامَ بثلاثةِ أشياءٍ، كلُّ واحدٍ منها قادحٌ في الأُلوهية، ورتَّبَ هذا الكلام على غايةِ الحُسنِ، ومع كلِّ ذلك الرفقِ واللين كانت الإجابةُ العصيان وعدم الإتباعِ، وهذه إرادةُ اللهِ-تعالى- في عبادِهِ، وقَدَرُهُ السَّاري على جميعِ خلقِه، فهو يهدي من يشاءُ، ويُضِلُّ من يشاءُ، وليس ذلك فحسب بل زيادة على النصح والإرشاد منه-عليه السلام- كرَّرَ النداءَ بالصيغةِ نَفسِها: ﴿يَا أَبَتِ﴾، في المواضع جميعها؛ وذلك طلباً ورجاءً لإيمان أبيه وتوحيده، وخوفاً عليه من سوء العاقبة، وهذا الأسلوب من أنجع الأساليب في الدعوة إلى الله-عَزَّ وَجَلَّ- وأفضلها، أخذاً بقوله-تعالى-: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[النحل:١٢٥]، ممَّا يهزُّ أعطاف السَّامعين ويقرِّب نفوس المُتأمِّلين ؛ فإنَّه لم يخل هذا الكلام من حُسنِ الأدب مع أبيه، إذ لم يُصرِّح فيه بأنَّ العذاب لاحقٌ له، ولكنَّهُ قال: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ﴾، فذكر الخوفَ والمسَّ، وذكر العذاب ونكَّره ولم يصفه بأنَّه يقصد التهويل، بل قصد استعطافه، ولهذا ذكر(الرحمن) ولم يذكر (المنتقم) ولا (الجبار).

٤-خروج النداء إلى معنى الذم والإهانة والتقريع:

تتضح هذه الأغراض البلاغية في إنزال القريب منزلةَ البعيد، ففي قوله-تعالى-: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[الحجر:٣٢]، إذ جاء الخطاب بـ(الياء) مختلفاً عمَّا مثَّلنا به سابقاً في خطاب المدح؛ فهو لا يُرادُ به بُعد المنزلة وما شابه ذلك؛ لأنَّهُ موجَّهٌ هذه المرَّة إلى عدوِّ الله، وهذا الخطاب له ليس للتشريف والتكريم؛ بل على سبيل الإهانة والإذلال، والتقريع والتوبيخ.

٥-خروج النداء إلى معنى الاستبشار:

اختص هذا الغرض البلاغي بنداء(البُشْرى)، والبُشْرى في معناها اللغوي مأخوذةٌ من(البَشَرَة) التي هي ظاهرُ الجلد، بمعنى أنَّها تظهر على بَشَرَة الجلد، لفرحٍ وسرورٍ، والبشارة المطلقة لا تكون إلا بالخير، وتُقيَّدُ في الشر خاصَّةً تقريعاً وتهكماً، ولتجنب الإطالة نودُّ الوصول إلى تلك الميزة البلاغية من نداء(البُشْرى) مع أنَّه نداءٌ لغير العاقل، ففي قصة إخراج يوسف-عليه السلام- من البئر وما حصل له بعد ذلك، يخبرنا-عَزَّ وَجَلَّ- بقوله: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[يوسف:١٩]، فالقوم هنا أرسلوا واردهم ليدلو بدلوِهِ الماء من البئر فيستقون منه، ثم تعلَّق يوسفُ-عليه السلام- بالحبل، فلمَّا خَرَجَ الدلو من البئر أبصره الواردُ فقال:﴿يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ﴾، ومعنى مناداته للبشرى أنَّه أراد حضورها في ذلك الوقت، فكأنَّه قال: هذا وقتُ مجيئك، وأوانُ حضورك، والمعنى من نداء(البُشْرَى)، التبشير لمن حضر، وهو أوكدُ من قولك: بشَّرتُه، كما تقول: يا عجباً، أي: يا عجبُ هذا من أيَّامِكَ فاحضرْ، وهم بهذا المعنى استبشروا بأنَّهم أصابوا غلاماً لا يعلمون علمه ولا منزلته من ربه، فضلاً عن أنَّه كان أحسنَ ما يكونُ من صفات الحُسنِ والجمالِ، وقد أُخرج من مكان لا يعلمه إلّا اللهُ-سُبْحَانَهُ-، وهذا كلُّه زيادةٌ وتوكيدٌ في سببِ نداء(البُشْرَى)، أو نداء غير العاقل.